منهج التغيير لدى سيّد قطب

هشام عليوان

الكلمات المفتاحيّة: سيّد قطب، فتحي الشقاقي، علي شريعتي، مالك بن نبي، أبو الأعلى المودودي، حسن البنّا، الجاهليّة، المجتمع الحركيّ، المجتمع المسلم.

المقدّمة

إن سيّد قطب[1] – حسب الدكتور فتحي الشقاقي[2] – واحد من ثلاثة مفكّرين شكّلوا مثلّثًا خطيرًا في الفكر الإسلاميّ الحديث في النصف الثاني للقرن العشرين، أمّا الآخران فهما الدكتور علي شريعتي[3] مفكّر الثورة الإيرانيّة،

---

[1] هو سيّد قطب إبراهيم حسين الشاذلي (1906–1966م) ناقد أدبيّ ومنظّر إسلاميّ. ولد بقرية قها إحدى قرى محافظة أسيوط. حفظ القرآن وهو في سن الحادية عشرة. حصل على شهادة البكالوريوس في الآداب من كلّية دار العلوم، وعمل مدرّسًا حوالي ست سنوات، ثمّ شغل عدّة وظائف في وزارة المعارف، إلى وظيفة مراقب مساعد. بدأ حياته السياسيّة متأثّرًا بحزب الوفد، ثمّ مناصرًا لثورة الضبّاط الأحرار عام 1952، قبل أن ينضمّ إلى جماعة الإخوان المسلمين، ويصبح عضوًا في مكتب إرشاد الجماعة ورئيسًا لقسم نشر الدعوة فيها، ورئيس تحرير جريدة **الإخوان المسلمين**. بدأ مسيرته ككاتب وناقد أدبيّ وصدر له روايات وأشعار قبل أن ينغمس في الكتابات القرآنيّة من منظور أدبيّ لا سيما كتابه **التصوير الفنيّ في القرآن**، ثمّ كان كتاب **العدالة الاجتماعيّة في الإسلام** قبيل سفره في بعثة علميّة إلى الولايات المتحدة أواخر الأربعينات، محطة بارزة نحو كتابات من نوع آخر، كانت ذروتها **في ظلال القرآن، ومعالم في الطريق**، وقد استكملها وهو في السجن. تعرّض للاعتقال بعد محاولة اغتيال جمال عبد الناصر عام 1954، ثمّ اعتقل مرة أخرى بعد أشهر من الإفراج عنه عام 1964، وحكم عليه بالإعدام وشُنق عام 1966.

[2] هو فتحي إبراهيم عبد العزيز الشقاقي (1951–1995م) أحد مؤسّسي حركة الجهاد الإسلاميّ في فلسطين أواخر سبعينات القرن العشرين، درس الطبّ في مصر ومارسه فيها. اعتقل عام 1979 بسبب تأليفه كتاب **الخميني الحلّ الإسلاميّ والبديل**. غادر سرًّا إلى قطاع غزة عام 1981. اعتقل في فلسطين أكثر من مرّة عام 1983 و1986 ثمّ أبعد في آب (أغسطس) 1988 إلى لبنان بعد اندلاع الانتفاضة في فلسطين واتهامه بدورٍ رئيس فيها. اغتيل في مالطا عائدًا من ليبيا إلى سوريا بعد محاولته حلّ مشكلة اللاجئين الفلسطينيين على الحدود الليبيّة المصريّة.

[3] هو علي محمّد تقي شريعتي مزيناني (1933–1977م). ولد قرب مدينة سبزوار في خراسان وتخرّج من كلّية الآداب، رُشّح لبعثة دراسيّة في فرنسا عام 1959 لدراسة علم الأديان وعلم الاجتماع، فحصل على شهادتي دكتوراه في تاريخ الإسلام وعلم الاجتماع. انضوى في شبابه في حركة مصدِّق وعمل بالتدريس. اعتقل مرتين أثناء دراسته بالكلّيّة، ثمّ بعد عودته من فرنسا، حيث أسّس عام 1969 حسينيّة الإرشاد لتربية الشباب، وعند إغلاقها عام 1973 اعتقل هو ووالده لمدّة عام ونصف العام. ثمّ سافر إلى لندن،

والمفكّر الجزائريّ مالك بن نبيّ[4]. وما يجمع الثلاثة أن ليس من بينهم رجل دين بالمعنى التقليديّ، فقطب ناقد أدبيّ، وشريعتي عالم اجتماع، أمّا بن نبيّ فكان مهندسًا كهربائيًّا، وذهب كلٌّ إلى الغرب، وعادوا ليكونوا من أبرز منظّري الحالة الإسلاميّة المعاصرة[5]. لكن بالنسبة إلى سيّد قطب خاصّة، فلن تكتمل الصورة من دون ذكر أبي الأعلى المودودي[6] المفكّر الباكستاني الذي له الفضل الأكبر على قطب، فكان صدىً له في أكثر المفاهيم خطورةً، ومحمّد قطب[7] الأخ الأصغر لسيّد، والذي هو امتداد مباشر له وشارح لمعظم آرائه وضابط لها، وإذ ذاك نكون أمام مثلّث

واغتيل عام 1977 قبل الثورة الإيرانية بعامين. له كتابات ذائعة الصيت لا سيما منها **التشيّع العلويّ والتشيّع الصفويّ، والنباهة والاستحمار، وفاطمة هي فاطمة، ودين ضدّ الدين.**

[4] مالك بن نبيّ (1905–1973م) هو من أبرز مفكّري النهضة، ولد بمدينة قسنطينة شرقيّ الجزائر، وترعرع في أسرة إسلاميّة محافظة، حاول الالتحاق بمعهد الدراسات الشرقيّة في فرنسا عام 1930، إلّا أنّه لم يكن متاحًا في ذلك الوقت للجزائريين. فالتحق بمدرسة (اللاسلكيّ) للتخرّج كمساعد مهندس. انغمس مالك بن نبيّ في عالم الفكر، واختار الإقامة في فرنسا وتزوّج من فرنسيّة، ثمّ شرع يؤلّف الكتب في قضايا العالم الإسلاميّ، فأصدر كتابه **الظاهرة القرآنيّة** في سنة 1946، ثمّ **شروط النهضة** في 1948، الذي طرح فيه مفهوم القابليّة للاستعمار، ووجهة العالم الإسلاميّ 1954، أما كتابه **مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي**، فيعتبر من أهم ما كتب بالعربيّة في القرن العشرين. انتقل إلى القاهرة بعد إعلان الثورة المسلّحة في الجزائر سنة 1954. وبعد استقلال الجزائر عاد إلى الوطن، فعيُّن مديرًا للتعليم العالي الذي كان محصورًا في جامعة الجزائر المركزيّة، حتّى استقال سنة 1967 متفرّغًا للكتابة.

[5] فتحي الشقاقي، **معالم في الطريق عرض ورؤية**، الطبعة 1 (القاهرة: دار الشروق، 1992)، الصفحات1–3.

[6] أبو الأعلى المودودي (1903–1979م) من أبرز المفكّرين الإسلاميّين في القرن الماضي ممّن لهم تأثير مشهود في الحركة الإسلاميّة عامّة بمختلف أطيافها ومشاربها. ولد بمدينة أورنك أباد في ولاية حيدر أباد بالهند من أسرة مسلمة محافظة اشتهرت بالتديّن والعلم. لم يعلّمه أبوه في المدارس الإنكليزيّة، بل أخضعه لبرنامج تعليميّ في المنزل. توفي والده عام 1917، فاتجه مبكرًا إلى مهنة الصحافة. كان عصاميًّا في تثقيف ذاته، فخلال إقامته في دهلي تعمّق المودودي في العلوم الإسلاميّة والآداب العربيّة، وتعلّم الإنكليزيّة في أربعة أشهر، واطلع على الآداب الإنكليزيّة والفلسفة والعلوم الاجتماعيّة. تنقّل في التيارات السائدة في عصره، إلى أنّ أسّس الجماعة الإسلاميّة عام 1941، وانشغل بالتأليف الفكريّ بدءًا من كتاب **الجهاد في الإسلام**، وله كتابات تركّز معظمها على الخلافة، والحاكميّة والحكومة، والنظريّة السياسيّة الإسلاميّة، والاقتصاد الإسلاميّ، لا سيما تفسيره للقرآن تحت عنوان **تفهيم القرآن**. حُكم عليه بالإعدام في باكستان عام 1953، بسبب تصدّيه للطائفة القاديانيّة، ثم عُفي عنه عام 1955.

[7] محمّد قطب هو الشقيق الأصغر لسيّد قطب، ولد عام 1919. درس اللغة الإنكليزيّة وآدابها، وتابع دراسته في معهد التربية العالي للمعلّمين فحصل على دبلومها في التربية وعلم النفس. تأثّر محمّد كثيرًا بشقيقه الأكبر سيّد، وشاركه في كثير من أفكاره التي بثّها في مؤلّفاته العديدة، والتي دارت مباحثها حول مفاهيم الحاكميّة وقضايا إسلاميّة متنوّعة. اعتقل في مصر عام 1954 بعد أيّام من اعتقال أخيه، ثمّ أعيد اعتقالهما عام 1965، وظلّ في السجن بعد إعدام سيّد إلى عام 1971. هاجر إلى السعوديّة، حيث كان له

آخر أكثر تفاعلًا واتساقًا من الناحية الفكريّة، وأكثر ارتباطًا فيما بين أركانه في سياق حركة منطلقة من رحم جماعة الإخوان المسلمين أو بالتوازي معها، لكنّها ستكون متمايزة عنها نوعيًّا في مرحلة تالية، وحيث يبقى سيّد قطب في موقع القلب من اتّجاه فكريّ جديد، سيشغل المشهد الحركيّ الإسلاميّ بعد إعدامه عام 1966 وحتّى الآن.

لقد عُرف قطب بمنهجه التطهّريّ من الجاهليّة التي هي ليست برأيه مرحلةً زمنيّةً محدّدةً مضت وانقضت، بل معتقدات وممارسات غير سويّة بالمعيار الإسلاميّ، ويمكن أن توجد في أيّ زمان لحظةَ انحسار مبدأ حاكميّة الشرع في المجتمع. وتقوم الجاهليّة -كما يقول قطب- حين يُعتدى على سلطان الله في الأرض وعلى أخصّ خصائص الأولوهيّة وهي الحاكميّة، أي بأن تُسند الحاكميّة إلى البشر في صورة حقِّ وضع التصورات والقيم، والشرائع والقوانين، والأنظمة والأوضاع، بمعزل عن منهج الله للحياة[8]. وعليه، فإنّ الشرط الضروريّ في مسار تغيير المجتمع من حال الجاهليّة إلى حال الإسلام -بنظر قطب- هو إدراك أنّ الحاكميّة الإلهيّة جزء لا يتجزّأ من الإيمان نفسه، فلا يوجد إن لم تكن قائمة في اعتقاد الفرد[9]، كما أنّ المجتمع لا يكون مسلمًا إن لم تتمثّل العبوديّة لله وحده في معتقدات أفراده وتصوراتهم، وفي شعائرهم وعبادتهم، وفي نظامهم الجماعيّ وتشريعاتهم، بحيث لو تخلّف أيّ جانب من هذه الجوانب، فقد تخلّف الإسلام نفسه عن الوجود[10]. وإذا ما عُرِف النهج الجاهليّ ومواصفاته، فكيف تكون العودة إلى نهج الإسلام ومبادئه؟ وما هي الخطوات اللازمة على طريق التغيير المنشود للمجتمعات التي أضحت جاهليّةً من دون حاكميّة الشرع؟ لقد اختطّ سيّد قطب في كتابه **معالم في الطريق** منهجًا متميّزًا عمّا سلكه مؤسّس جماعة الإخوان المسلمين حسن البنّا[11] حين جعل البراءة من حكم الجاهليّة، والمفاصلة مع المجتمع الجاهليّ، ركنين أساسين في المسار

تأثيره الكبير على جيل كامل من الصحويّين الإسلاميّين من خلال إشرافه على الرسائل الجامعيّة، من أبرز مؤلفاته: **منهج التربية الإسلاميّة، هل نحن مسلمون؟ مفاهيم ينبغي أن تصحّح، واقعنا المعاصر**.

[8] سيّد قطب، **معالم في الطريق**، الطبعة 6 (دار الشروق، 1979)، الصفحة 8.

[9] يقول قطب: إن الصورة الوحيدة التي يتحرّر فيها البشر تحرّرًا كاملًا وحقيقيًّا من العبوديّة للبشر هي حين تكون الحاكميّة العليا لله وحده في المجتمع؛ أي سيادة الشريعة الإلهيّة فيه، المصدر نفسه، الصفحتان 107-108.

[10] المصدر نفسه، الصفحة85.

[11] هو حسن أحمد عبد الرحمن محمّد البنّا الساعاتي (1906-1949م) مؤسّس جماعة الإخوان المسلمين لعام 1928، وهي من أكبر جماعات الإسلام السياسيّ في العالم المعاصر، وكان لها تأثير قويّ في مجريات الأحداث في كثير من المحطات التاريخيّة. كان داعيةً نشطًا وعضوًا دؤوبًا في عدد من الجمعيّات الخيريّة. حصل البنّا على دبلوم دار العلوم العليا سنة 1927، وكان ترتيبه الأوّل على دفعته، وعُيّن معلّمًا بمدرسة الإسماعيليّة الابتدائيّة الأميريّة. وفي آذار (مارس) من عام 1928 تعاهد مع ستة من الشباب على تأسيس جماعة الإخوان المسلمين في الإسماعيليّة وهم، حافظ عبد الحميد، أحمد الحصري، فؤاد إبراهيم، عبد الرحمن حسب الله، إسماعيل عز،

الآيل إلى إقامة المجتمع والدولة على أساس الإسلام، في حين أن البنّا سعى طيلة حياته القصيرة إلى حشد قاعدة عريضة على طريق إقامة دولة الإسلام، دون مفاصلة ولا تمايز، ومن دون انعزال شعوريّ عن المجتمع، ولا اعتزال الحياة العامّة.

مفاصلة مع الجاهليّة

يُصدر قطب أحكامًا حادّةً وقاسيةً ضدّ ما يعتبر أنّها الجاهليّة المعاصرة، والتي قد تكون أشدّ برأيه من الجاهليّة السابقة قبيل ظهور الإسلام، وحسب تعبيره: "نحن اليوم في جاهليّة كالجاهليّة التي عاصرها الإسلام أو أظلم. كلّ ما حولنا جاهليّة، تصورات الناس وعقائدهم، عاداتهم وتقاليدهم، موارد ثقافتهم، فنونهم وآدابهم، شرائعهم وقوانينهم"، وليس هذا فحسب، بل "حتّى الكثير ممّا نحسبه ثقافةً إسلاميّةً، ومراجع إسلاميّةً، وفلسفةً إسلاميّةً، وتفكيرًا إسلاميًّا، هو كذلك من صنع الجاهليّة"، من هنا يشخّص الداء الذي يحول دون نشوء "جيل ضخم من الناس من ذلك الطراز الذي أنشأه الإسلام أوّل مرّة"، إذ مع سريان قيم الجاهليّة في المجتمعات لا تستقيم قيم الإسلام في النفوس، ولا يتضح تصوّر الإسلام في العقول[12]، ومن دون التصوّر الصحيح للعقيدة لا يقوم المجتمع الإسلاميّ السليم.

ويميّز قطب بين المجتمعين الإسلاميّ والجاهليّ، فيقول: إنّ الإسلام لا يعرف إلّا نوعين من المجتمعات: مجتمع إسلاميّ ومجتمع جاهليّ. فالمجتمع الإسلاميّ هو المجتمع الذي يُطبَّق فيه الإسلام، عقيدةً وعبادةً، وشريعةً ونظامًا، وخُلُقًا وسلوكًا، والمجتمع الجاهليّ هو المجتمع الذي لا يطبّق فيه الإسلام، ولا تحكمه عقيدته وتصوراته، ولا قيمه وموازينه، ولا نظامه وشرائعه، ولا خُلُقه وسلوكه، حتّى لو ادعى أنّه مجتمع إسلاميّ. وهنا، تبدو النظرة المثاليّة التماميّة لقطب، والتي قد لا تتجسّد في الواقع إلّا في زمن ومكان محدّدين وبشكل استثنائيّ، ثمّ يذهب إلى أن المجتمع الإسلاميّ ليس هو الذي يضمّ ناسًا ممن يسمّون أنفسهم مسلمين، بينما شريعة الإسلام ليست هي قانون هذا المجتمع، وإنْ صلّى وصام وحجّ البيت الحرام، "وليس المجتمع الإسلاميّ هو الذي يبتدع لنفسه إسلامًا من عند نفسه

وزكي المغربي. عُرف عنه زهده في الكتابة، وما أُثر عنه مجموعة خطب ورسائل، ومذكّراته الشخصيّة تحت عنوان **مذكرات الدعوة والداعية**، والتي لا تغطّي من الأحداث سوى إلى عام 1942. اصطدم مع الحكم الملكيّ أيّام فاروق، فحظرت الجماعة، وضيّق على أنصارها، واغتيل عام 1949 حين كان يفاوض لإعادة الجماعة إلى النشاط الرسميّ.

[12] المصدر نفسه، الصفحة 18.

غير ما قرّره الله وفصّله رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ويسمّيه مثلًا الإسلام المتطوّر"[13]. بل إنّ الناس ليسوا مسلمين كما يدّعون – بنظر قطب – وهم يحيَوْن حياة الجاهليّة، "وإذا كان فيهم من يحبّ أن يخدع نفسه أو يخدع الآخرين فيعتقد أن الإسلام يمكن أن يستقيم مع هذه الجاهليّة فله ذلك، ولكنّ انخداعه أو خداعه لا يغيّر من حقيقة الواقع شيئًا، ليس هذا إسلامًا وليس هؤلاء مسلمين، والدعوة اليوم إنّما تقوم لتردّ هؤلاء الجاهلين إلى الإسلام ولتجعل منهم مسلمين من جديد"[14].

ويستدلّ قطب على العزلة الشعوريّة التي يراها إزاء المجتمع الجاهليّ بمجريات الفترة النبويّة إذ كان "الرجل حين يدخل في الإسلام يخلع على عتبته كلّ ماضيه في الجاهليّة، منفصلًا كلّ الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهليّة". وعلى هذا، "كانت هناك عزلة شعوريّة كاملة بين ماضي المسلم في جاهليّته وحاضره في إسلامه"، وتنقطع صِلاته بالمجتمع الجاهليّ من حوله وروابطه الاجتماعيّة، "فهو قد انفصل نهائيًّا من بيئة الجاهليّة، واتصل نهائيًّا ببيئته الإسلاميّة حتّى لو كان يأخذ من بعض المشركين ويعطي في عالم التجارة والتعامل اليوميّ". أمّا جوهر هذا الانفصال ثمّ الاتصال، أن يحدث انخلاع من البيئة الجاهليّة، وعُرفها وتصوّرها، وعاداتها وروابطها، ومن عقيدة الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن تصوّر الجاهليّة إلى تصوّر الإسلام عن الحياة والوجود، وينتج عنه الانضمام إلى التجمّع الإسلاميّ الجديد، بقيادته الجديدة، ومنح هذا المجتمع وهذه القيادة كلّ ولائه وكلّ طاعته وكلّ تبعيته[15]. وعلى هذا، "فليست وظيفة الإسلام إذًا أن يصطلح مع التصورات الجاهليّة السائدة في الأرض، ولا الأوضاع الجاهليّة القائمة في كلّ مكان، لم تكن هذه وظيفته يوم جاء، ولن تكون هذه وظيفته اليوم ولا في المستقبل، لأنّ الإسلام لا يقبل أنصاف الحلول مع الجاهليّة، لا من حيث التصوّر ولا من ناحية الأوضاع المنبثقة من هذا التصوّر، فإمّا إسلام وإمّا جاهليّة، وليس هناك وضع آخر نصفه إسلام ونصفه جاهليّة، يقبله الإسلام أو يرضاه[16]. لكنّ قطب يستدرك على مفهوم العزلة الشعوريّة عن المجتمع الجاهليّ، فلا تعني بنظره أن يقاطع المسلم الجاهليّة وينزوي عنها وينعزل، "إنّما هي المخالطة مع التميّز، والأخذ والعطاء مع الترّفع، والصدع بالحقّ في مودّة، والاستعلاء بالإيمان في تواضع"[17]. وعلى هذا، يرى قطب أنّه على منهج الحركة الإسلاميّة في فترة الحضانة والتكوين أن يتجرّد من كلّ مؤثّرات الجاهليّة، والرجوع إلى النبع الخالص

---

[13] المصدر نفسه، الصفحة105.

[14] المصدر نفسه، الصفحة 158.

[15] المصدر نفسه، الصفحة 17.

[16] المصدر نفسه، الصفحتان 149و150.

[17] المصدر نفسه، الصفحة161.

الذي استمدّ منه المسلمون الأوائل، وهو النبع المضمون أنّه لم يختلط ولم تَشُبْه شائبة[18].

بناء التجمّع الحركيّ

وإذا كانت المفاصلة مع الجاهليّة هي الخطوة الأولى في مسار التغيير، إلّا أنّ الإسلام، كما يقول قطب، لا يتمثّل في نظريّة مجرّدة، يعتنقها من يعتنقها اعتقادًا ويزاولها عبادةً، ثمّ يبقى معتنقوها على هذا النحو أفرادًا ضمن الكيان العضويّ للتجمّع الحركيّ الجاهليّ القائم فعلًا، ذلك أنّ وجودهم على هذا النحو مهما كثر عددهم لا يمكن أن يؤدّي إلى "وجود فعليّ" للإسلام. ومن ثمّ لم يكن بدًّا أن تتمثّل القاعدة النظريّة للإسلام (أي العقيدة) في تجمّع عضويّ حركيّ منذ اللحظة الأولى، أي لا بدّ أن ينشأ تجمّع عضويّ حركيّ آخر غير التجمّع الجاهليّ، منفصل ومستقلّ عن التجمّع العضويّ الحركيّ الجاهليّ الذي يستهدف الإسلامُ إلغاءَه، وأن يكون محور التجمّع الجديد هو القيادة الجديدة المتمثّلة في رسول الله صلّى الله عليه وسلم، ومن بعده في كلّ قيادة إسلاميّة تستهدف ردّ الناس إلى إلوهيّة الله وحده وربوبيته وقوّامته وحاكميته وسلطانه وشريعته، وأن يخلع كلّ من يشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمّدًا رسول الله ولاءه من التجمّع الحركيّ الجاهليّ– أي التجمّع الذي جاء منه – ومن قيادة ذلك التجمّع، في أيّة صورة كانت، سواء كانت في صورة قيادة دينيّة من الكهنة والسدنة والسحرة والعرّافين ومن إليهم، أو في صورة قيادة سياسيّة واجتماعيّة واقتصاديّة كالتي كانت لقريش، وأن يحصر ولاءه في التجمّع العضويّ الحركيّ الإسلاميّ الجديد، وفي قيادته المسلمة[19]. وذلك لأنّ الجاهليّة لا تتمثّل في نظريّة مجرّدة، ولكن تتمثّل في تجمّع حركيّ، وأنّ محاولة إلغاء هذه الجاهليّة وردّ الناس إلى الله مرّة أخرى، لا يجوز ولا يجدي شيئًا أن تتمثّل في نظريّة مجرّدة، لأنّها حينئذٍ لا تكون مكافِئةً للجاهليّة القائمة فعلًا، والمتمثّلة في تجمّع حركيّ عضويّ، فضلًا عن أن تكون متفوّقةً عليها كما هو مطلوب في حالة إلغاء وجود قائم بالفعل لإقامة وجود آخر يخالفه مخالفةً أساسيّةً في طبيعته وفي كلّيّاته وجزئيّاته. بل لا بدّ لهذه المحاولة الجديدة أن تتمثّل في تجمّع عضويّ حركيّ أقوى في قواعده النظريّة والتنظيميّة، وفي روابطه وعلاقاته ووشائجه من ذلك المجتمع الجاهليّ القائم فعلًا[20]. فعلى الرغم من أنّ الفترة المكّيّة، والتي طالت أكثر من الفترة المدنيّة، كانت مرحلة بناء العقيدة، إلّا أنّها لم تكن منعزلةً عن مرحلة التكوين العمليّ للحركة الإسلاميّة. ولم يقتصر البناء الواقعيّ للجماعة المسلمة في زمن

---

[18] المصدر نفسه.

[19] المصدر نفسه، الصفحتان 49و50.

[20] المصدر نفسه، الصفحة 48.

الإسلام الأوّل على تلقّي النظريّة ودراستها، ولكنها كانت مرحلة البناء القاعديّ للعقيدة وللجماعة وللحركة وللوجود الفعليّ معًا، وهكذا ينبغي أن تكون كلّما أريد إعادة هذا البناء مرّةً أخرى. هكذا ينبغي أن تطول مرحلة بناء العقيدة، وأن تتمّ خطوات البناء على مهل، وفي عمق وتثبّت. ثمّ هكذا ينبغي ألّا تكون مرحلةُ دراسةٍ نظريّةٍ للعقيدة، ولكن مرحلة ترجمة لهذه العقيدة، أوّلًا بأوّل[21].

والتوازي بين البناءين النظريّ والعمليّ، كما سبقت الإشارة إليه، ينبني أيضًا على المفاصلة العضويّة بين التجمّع الحركيّ الإسلاميّ من جهة، ونقيضه التجمّع الجاهليّ من جهة أخرى، لأنّ الأفراد المسلمين نظريًّا الداخلين في التركيب العضويّ للمجتمع الجاهليّ سيظلّون مضطرين حتمًا للاستجابة لمطالب هذا المجتمع العضويّة. بل سيتحرّكون – طوعًا أو كرهًا، بوعي أو بغير وعي– لقضاء الحاجات الأساسيّة لحياة هذا المجتمع الضروريّة لوجوده، وسيدافعون عن كيانه، وسيدفعون العوامل التي تهدّد وجوده وكيانه، لأنّ الكائن العضويّ يقوم بهذه الوظائف بكلّ أعضائه سواء أرادوا أم لم يريدوا، أي إنّ الأفراد المسلمين نظريًّا سيظلّون يقومون فعلًا بتقوية المجتمع الجاهليّ الذي يعملون نظريًّا لإزالته، وسيظلّون خلايا حيّةً في كيانه تمدّه بعناصر البقاء والامتداد، وسيعطونه كفاياتهم وخبراتهم ونشاطهم ليحيا بها ويقوى، وذلك بدلًا من أن تكون حركتهم في اتّجاه تقويض هذا المجتمع الجاهليّ لإقامة المجتمع الإسلاميّ[22].

خطوات المجتمع المسلم

أمّا خطوات إقامة المجتمع المسلم بشكل متسلسل، فيراها قطب على النحو التالي: ففي البداية لا بدّ أن يقوم المجتمع المسلم الذي يقرّ عقيدة أن لا إله إلّا الله، وأنّ الحاكمية ليست إلّا لله، ويرفض أن يقرّ بحاكميّة لأحد من دون الله، ويرفض شرعية أيّ وضع لا يقوم على هذه القاعدة. وحين يقوم هذا المجتمع فعلًا تكون له حياة واقعيّة تحتاج إلى تنظيم وإلى تشريع، وعندئذ فقط يبدأ هذا الدين في تقرير التنظيم وسنّ الشرائع لقوم مستسلمين أصلًا للنظم والشرائع، رافضين أصلًا لغيرها من النظم والشرائع[23]. فإذا دخل في هذا الدين بمفهومه الأصيل عصبة من الناس، فهذه العصبة هي التي يُطلَق عليها اسم المجتمع المسلم، المجتمع الذي يصلح لمزاولة النظام الإسلاميّ في حياته

---

[21] المصدر نفسه، الصفحة 39.

[22] المصدر نفسه، الصفحتان 49-50.

[23] المصدر نفسه، الصفحات 33 -36.

الاجتماعيّة[24].

وإنّ هذا المجتمع لا يقوم حتّى تنشأ جماعة من الناس تقرّر أنّ عبوديّتها الكاملة لله وحده، وأنّها لا تدين بالعبوديّة لغير الله. لا تدين بالعبودية لغير الله في الاعتقاد والتصوّر، ولا في العبادات والشعائر. ولا تدين بالعبوديّة لغير الله في النظام والشرائع، ثمّ تأخذ بالفعل في تنظيم حياتها كلّها على أساس هذه العبودية الخالصة. عندئذٍ – وعندئذٍ فقط – تكون هذه الجماعة مسلمةً، ويكون هذا المجتمع الذي أقامته مسلمًا كذلك. فأمّا قبل أن يقرّر ناس من الناس إخلاص عبوديتهم لله فإنّهم لا يكونون مسلمين، وأمّا قبل أن ينظّموا حياتهم على هذا الأساس فلا يكون مجتمعهم مسلمًا. هكذا كانت نشأة الجماعة المسلمة الأولى التي أقامت المجتمع المسلم الأوّل، وهكذا تكون نشأة كلّ جماعة مسلمة، وهكذا يقوم كلّ مجتمع مسلم[25].

وبعد قيام المجتمع المسلم يثار السؤال عن موقف المجتمع الجاهليّ ودوره في كبح المسار أو إجهاضه، وهنا يقول قطب: إنّ المجتمع الجاهليّ القديم قد ينضمّ بكامله إلى المجتمع الإسلاميّ الجديد وقد لا ينضم، كما أنّه قد يهادن المجتمع المسلم الجديد أو يحاربه، وإن كانت السُنّة قد جرت بأن يشنّ المجتمع الجاهليّ حربًا لا هوادة فيها، سواء على طلائع هذا المجتمع في مرحلة نشوئه –وهو أفراد أو مجموعات– أو على هذا المجتمع نفسه بعد قيامه فعلًا – وهو ما حدث في تاريخ الدعوة الإسلاميّة منذ نوح عليه السلام، إلى محمّد عليه الصلاة والسلام، بغير استثناء. ثمّ إنّه من الطبيعي أن لا ينشأ المجتمع المسلم الجديد، ولا يتقرّر وجوده إلّا إذا بلغ درجةً من القوّة يواجه بها ضغط المجتمع الجاهليّ القديم، قوّة الاعتقاد والتصوّر، وقوّة الخلق والبناء النفسيّ، وقوّة التنظيم والبناء الجماعيّ، وسائر أنواع القوّة التي يواجه بها ضغط المجتمع الجاهليّ ويتغلّب عليه، أو على الأقلّ يصمد له[26].

لكن قطب ومع إقراره بحتميّة الصراع والصدام بين المجتمعين المسلم والجاهليّ، إلّا أنّه يحافظ على تغليبه للمنحى النظريّ في عملية المغالبة، إذ إنّ عناصر القوّة الحقيقيّة تكمن في طبيعة هذه العقيدة ذاتها، ومن ثَمّ فهي تملك أن تعمل في أسوأ الظروف وأشدّها حرجًا، وهي تكمن في الحقّ البسيط والواضح الذي تقوم عليه، وفي تناسقها مع الفطرة التي لا تملك أن تقاوم سلطاتها طويلًا، وفي قدرتها على قيادة البشريّة صُعُدًا في طريق التقدّم، في أيّ مرحلة كانت البشريّة

---

[24] المصدر نفسه، الصفحة 36.

[25] المصدر نفسه، الصفحتان 86 و87.

[26] المصدر نفسه، الصفحة 88.

من التأخّر أو التقدّم الاقتصاديّ والاجتماعيّ والعلميّ والعقليّ[27]. على أنّ الفعّاليّة القصوى لهذه الخصيصة الكامنة في قوّة التصوّر الإسلاميّ تكمن في صراحتها هذه وهي تواجه الجاهلية بكلّ قواها المادّيّة، فلا تخرم حرفًا واحدًا من أصولها، تصدع بالحقّ صدعًا مع إشعار الناس أنّها خير ورحمة وبركة، والله الذي خلق البشر يعلم طبيعة تكوينهم ومداخل قلوبهم ويعلم كيف تستجيب حين تصدع بالحقّ صدعًا في صراحة وقوّة، وبلا تلعثم ولا وصوصة. والمعيار الحاسم في هذا السياق يوجد في النفس البشريّة نفسها التي لديها الاستعداد للانتقال الكامل من حياة إلى حياة، وذلك قد يكون أيسر عليها من التعديلات الجزئيّة في أحيان كثيرة، والانتقال الكامل من نظام حياة إلى نظام آخر أعلى منه وأكمل وأنظف، وهو انتقال له ما يبرّره في منطق النفس. إذ ما الذي يبرّر الانتقال من نظام الجاهليّة إلى نظام الإسلام، إذا كان النظام الإسلاميّ لا يزيد إلّا تغيّرًا طفيفًا هنا، وتعديلًا طفيفًا هناك؟ إنّ البقاء على النظام المألوف أقرب إلى المنطق لأنّه على الأقلّ نظام قائم، قابل للإصلاح والتعديل، فلا ضرورة لطرحه والانتقال إلى نظام غير قائم ولا مطبّق ما دام أنّه شبيه به في معظم خصائصه[28].

وعليه، فإنّ ما يمكن استخلاصه أخيرًا، أنّ منهج التغيير لدى سيّد قطب لا يعمل بأقصى قواه إلّا إن كانت المفاصلة حاسمة نظريًّا وعمليًّا، حتّى يظهر الحقّ من الباطل جليًّا دون أيّ لبس، فتكون الطريق مفتوحة أمام الفطرة الإنسانيّة كي تميل بشكل طبيعيّ إلى الحقّ.

---

[27] المصدر نفسه، الصفحة156.

[28] المصدر نفسه، الصفحتان 156و157.